القصة. والثاني، لأنّ الرواية، كشكل أدبي، أقدر على تصوير الواقع الفلسطيني المعقد وتطور القضية من مرحلة إلى أخرى.

ولقد تناولت بالدرس العناوين السبعة التي نشرت في الآثار الكاملة، وقد رأيت أنّها تنقسم إلى قسمين هما:

القسم الأول ويشمل روايات: «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم» و«عائد الى حيفا» والجزء الذي أنجز من رواية «الأعمى والأطرش». وقد لاحظت أن هذه الروايات تنتمي إلى شكل فنّي متقارب، فرغم الاختلافات الواضحة في تقنياتها إلّا أنها تحتوي على مقوّمات أساسية تجعلها تصبّ في نفس الشكل الأدبي؛ وهو الرواية التي تعتمد الحبكة والبناء المغلق.

القسم الثاني، ويشمل «أم سعد» وما أنجز من «العاشق» و«برقوق نيسان». وروايات هذا القسم تحمل ميزات خاصة تبعدها شيئاً ما عن هذا الشكل، وإن كانت لا تقطع صلاتها به، لذلك رأيت أن أصنفها في باب الرواية ذات الصبغة الملحمية لأنّها توفر بعض مقومات الرواية، ولكن فيها من التقنيات ما لا يتماشى مع هذا النمط الأدبي ويشرف بها على نمط آخر هو الملحمة، ولا أقصد أنها تشكل ملحمة وإنما لها بعض مميزات الشكل الملحمي؛ فهي رواية ولكنها تصطبغ بصبغة ملحمية.

قد يستغرب البعض هذا التقسيم خاصة وأنّه يجمع أعمالاً تبدو متباعدة؛ لذلك سأحاول أن أبيّن المنطلقات التي اعتمدتها في الحكم على هذه الأعمال. ولن أعمد إلى تحليل كلّ رواية على حدة، لأنّ ذلك يتطلب جهداً يتجاوز هذا المقال، ولكنني سأبيّن النقاط الأساسية التي تتحد فيها أو تتباين، ثمّ بعد ذلك سأحاول تقديم السمات البارزة التي تميّز فنّ الرواية عند غسان كنفاني. وسأبدأ باقرار أن هذه الأعمال هي روايات، ولعليّ بهذا أردّ على بعض التحفظات التي جرت حول بعضها، وربّما كان أوّل ما يبين لنا ذلك هو أنّها أعمال تنطلق من الحياة العامة، وهي ترتبط بفترة تاريخية محددة وبيئة معيّنة. ونحن نقول هذا لأن من مميزات الشكل الروائي الأساسية كونه نوعاً شمولياً يتناول حياة الفرد والمجموعة في مظهرها التاريخي، وهو لا يتحدث عن الإنسان كجوهر ولا يجرده من واقعه بل يبقيه بلحمه ودمه، بكيانه الاجتماعي. وفي هذا الصدد، نلاحظ أن أعمال غسان كنفاني السبعة بعيدة كلّ البعد عن التجريدات والهموم الفكرية، فكل أبطاله ملتصقون بالواقع اليومي بل هو شغلهم الشاغل.

ولقد كانت رواياته تصوّر حياة الأبطال في فترة من حياة الشعب الفلسطيني، وأنّ لهذا التاريخ انعكاساً في سير الأحداث وتوجيهاً لها؛ وهذا ما جعل الأحداث تتغيّر كلّما تغيّر الواقع الفلسطيني وظهرت علامات جديدة فيه. كما أن غسان يهتمُّ بتوضيح صورة أبطاله ويتجنّب أن يكونوا مجرّد خطوط بيانية، إننا نعرف عنهم الكثير، ممّا يساعدنا على تأصيلهم في بيئتهم، فنحن نعرف ظروف عيشهم وكيف يرتزقون وعلاقاتهم ومع من يتعاملون، نعرف ماضيهم وحاضرهم، ونعرف الانعكاسات النفسية لذلك عليهم.

أما النقطة الثانية التي تقوم عليها روائية هذه الأعمال، فهي طريقة ترتيب الأحداث؛ إذ لا يكفي أن يصاغ الواقع بل لا بدّ من أن تشكل الأحداث المعروضة كلاً متكاملاً. يجب أن تكوّن الأحداث وحدة، وهذا شرط ضروري في الرواية؛ إذ لا يمكن أن